الحب والصداقة

ولع الإنسان بالتحليل والتعريف المنطقي في أية صورة تعرض له فهو يشاء إلا أن يتأبط المقاييس المصطلح عليها بين الناس ليطبقها في سائر جزئيات الحياة الإنسانية مهما أحيط بتلك الجزئيات من غموض وعوارض لا يمكن معها أن تتخذ تلك المقاييس أداة تعريف وحكم.

ولع الإنسان بالمقارنة والمفاضلة، لذلك فهو لا يفتأ الا يأخذ من المثلين أو الضدين صورة من المفاضلة أو بعبارة أدق من تبرير أفضل ما ترغب فيه نفسه وتتوق إليه، والإنسان في ذلك لا ينفذ إلا رغائبه الفكرية حيث يستلهم أشباح المعقولات في نطاق الروح الذي يجب علينا أن نعرف بصراحة أن له مقاييس أخرى غير تلك المقاييس المنطقية، مقاييس نشعر بها ولا نلمس لها من وجود إلا متى أبعدتنا كثيرا عن المادة واتصلنا بإحساسنا الإنساني البحت.

إنك تسلم معي أن الحب شيء، فوق متناول المادة لا يقايس بقوانين العقل والمنطق، شيء لا يجب أن نصله إلا بشعورنا الغامض المكين في نفوسنا المستقر على أجنحة ما في ذاتيتنا من إدراك سامي لمعاني الوجود والحياة.

وتسلم معي أيضا أن الصداقة الحقة هى إحساس لا يقل في قوته عن ما في الحب من إحساس وشعور ولا تجادل إلا في أن الصداقة مهما قوى إحساس المرء بها لم تكن أعمق من إحساسه بالحب حيث أقول لك إن الصداقة تكاد أن تكون أسمى بكثير من الحب تجادلني في ذلك وتأبى أن تسلم بي مهما جهدت النفس في أن تعبر لك عن إحساسها القوى الغامض بالصداقة التي أشعر بها عندما تتجه قواى الروحية إلى صديق أو صديقين لي أشعر نحوهما بهذه القوى الجبارة المصارعة لما في نفسي من نزاعات أخرى

كلما ذكرتهما وكلما جالستها.

ولست أريد اليوم أن نقف متجادلين في هذه النقطة، فلها وقتها ولها مجالها في يوم آخر؛ أما الآن فحسبي أن أعرض عليك صورة سريعة عن مقارنة بسيطة بين جزأى العنوان، بمناسبة أثارت في نفسي ذكرى الصداقة وذكرى الحب فأحييت أمام مخيلتي الماضي بصورته القوية الصادقة فسلمت بنفسي إليها ساعة من الزمان تعرفها عزيزة على.

مناسبة مطالعتي لفصل في كتاب عن الحب فقلت في سري لماذا ألف عن الحب هذه العشرات من المؤلفات ولماذا بقى الحب مدة طويلة من حياة الإنسانية ميدانا للشعر لا ينتقل منه إلى غيره إلا في فترات قصيرة ليعود إليه، بينما الصداقة وقوة إحساس المرء بها كما تعرف وأعرف لا نجد فيما تركته إليها أجيال السلف إلا بعض سطور تأتي في مناسبة عارضة ثم تختفي عن الأعين في لمحة وجيزة المدة الطويلة.

ولقد تساءلت هذا السؤال أمام صديق فحاول أن يجيب عن سؤالي بإنكاره قائلا: وهل هناك فرق بين الحب والصداقة؟ الحب هو الصداقة والصداقة هى الحب.

فابتسمت وقلت له: وهل تذوقت إحساسهما معا حتى يتاح لك أن تسرع في حكمك هكذا؟

- لقد عرفت الصداقة ولكني لم أعرف الحب.

- إذن، أنت لم تعرف الصداقة إلا بمقدار بسيط جدا.

- وماذا تعني؟

- أعني أنك تعرفت إلى اصداقة في أبسط صورها ولم تتصل بها في أعمق صورها. فالصداقة التي أود أن أقارنها بالحب الجنسي هى ذلك الامتزاج القوى الذي كل غايته وكل ما يصله إليه المرء بعده هو الامتزاج الذي لا غاية بعده. الامتزاج بين روحين لا يتولد عنه من التفاعل إلا المزج الحقيقي.

- غمضت؟

- أصحيح غمضت، ولم تقول إنك تعرفت إلى الصداقة ومثل هذا الكلام البسيط يعسر عليك ويغمض عينيك؟

- غمضت لأنك تتحدث عن ما ليس له صلة بحياتنا.

- وها أنت ثانيا تعترف بعجزك عن فهم الصداقة، فلقد خيل إليك أن حديثي عنها طلسم لا يحل ولا يطبق على الحياة الإنسانية، وأني جازفت في الخيال وأطلقت لنفسي عنانها في ميدانه. أليس كذلك؟

- ربما.

- إذن، اعلم أن الصداقة أعمق مما تصورت؛ فإحساس الصداقة الحقة قلما يدركه المرء العادي الذي لا يرى الحياة إلا في صورتها المادية ولا ينفذ إلى صميمها. فالصداقة هى أن تشعر بوجودك في غيرك. وهذا الشعور لا يتاح لكل فرد يسير على اثنين.

- وكيف ذلك؟

- يا لله أو تشاء أن تجعل مني جبرائلا ثانيا يميت الأرواح ويحييها من جديد في صور جديدة حتى أستطيع أن أجعل منك شخصا يفهم أسمى ما في الحياة الإنسانية بعد أن لم يمنحه الباري الموهبة لفهم مثل هذه الإحساسات.

ومالي أجاري هذا الصديق في رسالتي إليك وهو يفهم عن الصداقة ما تفهم هذه الأشباح التي تتوارى في الشارع متقاتلة وراء المصلحة الملموسة. فلا داع ما دار بيني وبينه في جدران مكتبي لأتحدث إليك عن قلبي وروحي.

قليل يا صديقي من يفهم معنى الحب ويقدس عناصره. وأقل من ذلك من يرى للصداقة من رابطة إلا رابطة الاجتماع حيث يتاح للإنسان تبادل المنافع في يسر ولين. أما صور الصداقة فإنك لا تجدها مرسومة قوية إلا في كتب الصوفية الذين يعرض عليه عامة الأفراد بدعاوي الغموض واللبس.

لعلك قرأت فصلا أو فصولا من كتب هذه الجماعة التي لا تعيش للتعيش بل ترى في

الحياة لذة لا تستطيع أن تشمها على وجه التحقيق وإنما هى لذة تغمر الإنسان بإحساسه فيتنسى وهو ينشدها ما حواليه. تعرف أني ولعت بقراءة ما أنتجته عقول الصوفية وإني أخلو إلى ذلك الإنتاج كلما سمحت لي شواغل الحياة، تعرف هذا فقد تحدثت إليك عنه طويلا، ولكنك لا تعرف أصل وسبب شغفي بهذا الإنتاج الغامض الواضح معا. لقد وجب على وأنت صديقي أن أوضح لك السبب حتى أستريح وأؤدى للصداقة واجبي نحوها. فإني لها مدين بما أجده من لذة كلما اهتممت بقراءة كلام المتعطشين لحياة الروح الأزلي. فصدفة ألقى إلى بكتاب وصدفة كان الفصل الذي فتحت عليه الكتاب عن الخل الوفى، فإذا ما ألقيت بعيني على سطور الفصل قرأت فإذا بأشجاني تثور وإذا برغبة تتوالى في نفسي أن أقرأ ما عسى ولعل فيه ما أنت تتساءل عنه، حيث تجحد أن عبر الكتاب مشاعرهم نحو الصداقة.

لقد التهمت الفصل ثم والكتاب ثم سعيت حيث المكتبة، فكان حظي منها مجموعة كتب للصوفيين ما كدت أرجع إلى البيت حتى تصفحت بأجمعها كما هى عادتي وأنا كلي رغبة في أن أستمع إلى هؤلاء الذين لا يرون الحياة إلا بالعين المجردة ولا يفهمون هذا الوجود من طريق العقل وكفى، بل لهم طريقة أخرى تظهر للبعض ملتوية وهى في الحقيقة مستقيمة فخيل إلى ذلك البعض أن لا استقامة لها.